الاجنبية تستفيد الخزينة من تمتع التجار والصناع ورسم الكمرك (الكومس) ويرخص السمن واللحم فتتسع على الناس معايشهم وتقوى على العمل اجسامهم وقد وقفت عند هذا القدر في بيان النظام الجديد وسأعود الى البحث اذا دعت الحاجة والله الموفق

شكري العسلي

ضراء العلماء

٢

وفي هذا الجيل الثاني ، نفر لم يكتف بالوقوف على حضارة المشرق وآدابه بل غاية ما وصلت اليه افهامهم من البحث والتدقيق أطلعهم على بناء العلوم الغربية الحديثة فقط فراحوا وهم ثملون بخمرة تلك الثقافة يهرفون بما لا يعرفون زاعمين ان المشرق وحده مبعث الأهوال الحربية كما ان البعض حتى من علماء الغاربة يصورون الشرق بذلك القفر المجرد والعربي ذلك الذي يخوض بحاراً من رمال محرقة واشعة الشمس المذابة بقطراتها تنصب عليه فتصهر رأسه في فضاء صحاري جرداء تكاد لا تتناهى ...

ولو تهيأ للعقل العربي ما تهيأ للغربي من التربية والبيئة (المحيط) وتكاثر الوسائل والوسائط ما كان بمنجاة فتأثير في اخلاقه وافكاره وخيالاته وقوته العقلية وطبيعته الغريزية الخ ... لاستعاض عن ظلال الخباء التي كان يتحصن في زواياها[١] بجدر الكيمياء ذات البنيان المحكم والمعامل الكبيرة ولكانت له ضفاف الانهار مباءة يتفيؤ ظلالها الخضراء .

ولقد رأينا العرب لما اختلفت عليهم مؤثرات التربية والبيئة وأنشأوا يفتحون الممالك ويمصرون الامصار أمة ناهضة بلغت في الحضر والحضارة شأواً بعيداً وضربت في المدنية والعمران بسهم وافر ، ونبغ بين ظهرانيهم من النحاة من النوابغ في العلم والاجتماع والاديان على اختلاف ضروبها امثال الكندي وجابر الكوفي والطوسي وابن رشد وابن

---

[١] جابر الكوفي الكيمياوي العربي المشهور

سينا والفارابي وابن ابي اصيبعة والسمرقندي في الرياضيات والطب والفلسفة والغزالي والرازي وابن حزم وابن باجة وابن خلدون والمتنبي والمعري في الاجتماع والتاريخ والاخلاق والشعر واحد العظماء من الامراء يسرفون في انشاء معاهد العلم في بغداد وسمرقند والشام والاقطار الاخرى وعهدوا وظيفة التعليم الى من تألقت شهرتهم في العلم في ذلك العصر مما يدل على نهضة علمية كبرى نشأت في المشرق بقي من آثار القائمين بها الاطلال بالية ومن نتائج قرائحهم ما ملئت بها مكتبات المشرق والمغرب على كثرة ما عداها من عوادي الايام .

ألا وإن الامم تسير في تقدمها وتأخرها على نواميس عامة قد لا تختلف في العالم إلا بقدر الاستعداد الفطري وتأثير الاقليم . ومما يصح ان يقال عن تلك الامم من الاعمال الحربية ان هو الا امر طبيعي لا بد من وقوعه بين اي شعب أسف للانحطاط في العلم واشتد جموده في الدين

***

مر على أمم من ادوار الظلم والظلمات ما سجل لنا التاريخ من آثارها في الامم الحربية ما يصح ان يكون عبرة صحيحة وذكرى سوء . وذلك في الغالب يرجع الى عوامل ثلاثة كانت علة البلى لما نجم عنها من سقوط وجمود : الملوك ورجال الكنيسة والنبلاء . أما النبلاء فلم يؤثر عنهم في الأعم الاغلب من حالهم سوى انهم كانوا يسعون وراء تأييد نفوذهم ونيل شهواتهم وطود نفوذهم باية طريقة كانت سواء دعا سعيهم هذا الى اهراق دماء الشعب وابتزاز امواله واكتساح الاراضي الشاسعة من مستعمراته او الى مقاومة الملوك اذا آنسوا منهم ما لا يطلق على ما يأبونه من حب السلطة والجاه الذي كان ديدنهم ودينهم حتى انهم لهم نفوذ قوي كان لهم مثله في عامة ما تذرعوا به من الذرائع لحفظ سلطتهم واحرازهم ميزة على غيرهم من بني البشر حتى في المحاكم ومسائل القضاء .

وأما الملوك فعن استئثارهم في الملك واغراقهم في البذخ والترف وحملهم على رعاياهم في الارهاق والعسف واتباعهم كل امر يكون مطاردة لقادة الافكار من رجال الامة فكان الملك يذيب أيامه ولياليه التي كان يجب ان يقضيها بما يعود على الامة والوطن بالمنفعة العامة في اختراع صنوف الحيل والدسائس تارة وفي اطلاق الموبقات مرة اخرى فمن سلطة قداح الى إراقة الدماء بين وصيف ووغد وكثيراً ما كانت تلعب بالملك والسلطان في لعبه

وما ساعدهم في عملهم هذا غفلة الشعب وتعودهم من استناده بالملوك والقياصرة والاقيال والاكاسرة انهم آلهة الارض والآمرون الناهون في العالمين آلة صماء لتنفيذ آمالهم وأعمالهم . وكان الشعب مغلول اليد والفكر واللسان ليس له من الأمر شيء الا الطاعة العمياء . وفوق هذا كله انه كان يرى في هذه الطاعة خيراً يصيبه او ثواباً يناله . ولم يكن من الشعب الغافل الا ان نعتهم بالالقاب السماوية ووصفهم بعامة صفات الربوبية

واما رجال الكنيسة : فكانوا يعملون ايضاً حفظاً لسلطتهم واستبقاء لعزيز جبروتهم في الصعود للعز والعلاء . وتم لهم ذلك بما اسدلوه على الابصار من الحجب المزركشة التي هي ليست سوى خيالات خداع وختل وتدجيل وتلاعب قالوا عنها انها الدين وليست منه في شيء حتى كان منهم ان كانوا يقسمون الممالك ويوزعونها ويخلعون من الملوك من يشاؤون وأذلوا كما قال احمد شعيب بك حكام اوربا المطلقين (ديكتاتور)

غضب مرة الاب (هيلدبراند) على هنري الرابع واصحابه فحرمهم جميعاً حتى اضطر الامبراطور هو وزوجته الى ان يقصدوه ليغفر لهم سيئاتهم فقطع جبال الالب في ايام الشتاء وقد ارتدى قميصاً ابيض أحد المجرمين ووقف أمام القصر الذي كان حالاً في صدره ذلك الاب ثلاثة ايام وهو يرتجف من صبارة القر واخيراً أذن له بالحضور ليمثل بين يديه وقبل قدميه وهكذا استطاع ان يظفر بتطهير العفو (١)

وان اعمال رجال الكنيسة في محكمة التفتيش لا تكاد تمحى آثارها من صفحات الوجود فقد كان الغرض من انشاء هذه المحكمة مقاومة العلم والفلسفة عندما حيث ظهورهم بين الاساتذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً في جنوب فرنسا وايطاليا . وفي مدة ثماني عشرة سنة من سنة ١٤٨١ — ١٤٩٩ حكمت على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم احياء فاحرقوا وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا وعلى سبعة وتسعين الفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة نفذت ثم احرقت كل توراة بالعبرية (٢)

وقد قرر مجمع لاتران سنة ١٥١٣ ان يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد وطفق الدومينيكان يحذرون من ابن رشد ويلعنه ويلعن من ينظر في كلامه شيئاً من الدعاية والعبادة . قال الاستاذ الشيخ محمد عبده : « كل ذلك لم يمنع الامراء وطلاب العلم من

---

(١) عن « الحرية الدينية » في التركية — لاحمد شعيب (٢) الاسلام والنصرانية — ص ٣٨

كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول الى شيء من كنهه وتخلية العقول بعض الافكار . ثم قال :

« واوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب اهل اوربا ما خيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر اذا نظر حوله والتفت وراءه ان رسول الشؤم يتبعه وان السلاسل والاغلال اسبق الى عنقه ويديه من ورود الفكرة العلمية اليه »

هذا ولا ننس ما كان للحروب والثورات بادىء بدء من التأثير السيء في الحركة العلمية في المدارس فالثورة الفرنساوية دعت الى الغاء دار الفنون الذي ظل يختلف اليها الطلبة منذ زمن مديد . والغيت بالقرار المؤرخ في ١٠ آذار عام ١٧٩٤ كلية باريس وثلاث وعشرون جامعة في الولايات الاخرى وصودرت اوقافها واملاكها وان حروب التتار الشعواء اثرت على الجامعات التي أنشئت في مدينة (يولوفوردو) و(كرسون) و(موسقو) من بلاد روسيا ما قحمها التتار بحد سيوفهم .

ولما دب في اوربا دبيب الحياة وقامت تطالب باسترداد حريتها نشأت الحكومة الروسية تتذرع بكل حيلة وتعمد لصد هجماتهم واول ما بدأت به إغلاق الجامعات والمدارس ومن ذلك جامعة (فارسوفيا) الشهيرة التي اغلقت عام ١٨٣٢ وظلت كذلك موصدة سنين واعواماً . وانه وان أذن للجامعات بعدئذ ان تفتح ابوابها بيد انه لم يعد يراعى فيها اصول الحرية في التربية والتعليم في حال من الاحوال

وانك لترى الجامعات والمدارس بعد ما توالى على اوربا من الازمات العلمية والفكرية في حالة النزع والاحتضار إدارة وتعليماً . فاذا ما كان من امر التعليم فانها كانت تلك الحلقة التي كانت متبعة في القرون الوسطى وكان المتطفلون على موائد العلم يتسلقون الرتب العلمية على رؤوس الاشهاد ولم يكن من المعلمين الحقيقيين من يستطيع ان يدرب التلاميذ على اصول التربية الحديثة وان كان يوجد فانهم كانوا يتقاضون مرتباً نزراً يسيراً .

***

في ذلك الزمن الذي اشتدت فيه الازمة كانت اوربا تتمخض بالثورات السياسية والحربية . بيد انها لم تستطع ان تضع حملها الا بعد ان قام فيها فريق من اهل العلم والادب فبدأوا يجدون ما في طوقهم ووسعهم وراء مكافحة اولئك الحومة المرتقين ومناهضتهم في القلم واللسان ليستردوا لبني البشر حقوقهم المغصوبة فكان بينهم العلماء والحكماء والادباء والمصلحون والشعراء امثال نيوتن وباكون وديكارت وهيكو وفولتير

ولامارتين وتولستوي وولز وفكتور وكانت وهيجل وموليير وغيرهم من رجال الاصلاح وكذلك كان بين هؤلاء من رجال الاصلاح الديني كثيرون ومن اقدمهم جهاداً وجلاداً « لوثيروس » زعيم المذهب البروتستانتي في البلاد الاوربية والاميركية جمعاء .

فلهؤلاء العظماء اثر في تربية الشعب وتحليه واقناع النفوس بما تجدد في البلاد من الاوضاع وما اثر في عالم المطبوعات من المصنفات العلمية والادبية واكتسبت بما اكتسبه من الحلل القشيبة ميلاً عاماً من القلوب فتهافت الناس عليها وهم في اشد الحاجة الى ما يمحو ما انطبع في صفحات الافكار من الشوائب المشينة . وكان اول انقلاب وقع في انظار الاسرة العائلية او المعتقدات . وتمثل هذا الانقلاب باكمل مظاهره في النوادي والافكار وعلم الشعب حتى العامة منه بمفهوم الخطاب بمعنى الحاكم وان الملوك والامراء جميعاً ليست سوى اجراء له وانتشر الى استرداد حقوقه بما امتزج روحه من قوة الحرية في القول والعمل

* * *

شعر الملوك ورجال الكنيسة بما آنسوا من الشعب ميلاً الى الاصلاح ورجاله بالخطر الذي يتهدد سلطتهم المطلقة فأخذوا يضيقون على طالبيه الاولى ضروباً من الجنايات والجبايات . الا وان قصر الباستيل والآلة المدعوة المقصلة (كيلوتين) ومحكمة التفتيش والنفي في سيبريا وسراي التويلري [1] اعظم شاهد على ما اتوا به من الفظائع والفجائع لمعاقبة العلماء والحكماء ورجال الاصلاح :

هذا « لافوازيه » العالم الكيماوي المشهور المتوحد في هذا الفرع من العلم عناية خاصة واكتشف عناصر جديدة لم تكن معروفة من قبل ووضع نواميس علمية الآن فيها ما يجري تطبيقه على المتقدمين حتى دعي « واضع الكيمياء الجديدة » — هذا الرجل على فضله وعلو كعبه في العلم وخدمته الانسانية جمعاء حكم عليه بالاعدام وسيق الى ساحة القتل حيث ذهب ضحية الجهل والغدر والخيانة

وهذا « غاليله » العالم الايطالي الفلكي المشهور عقدت من اجله جلسات متوالية في ايطاليا تحت امر رجال الكنيسة وغيرهم واجمعوا على خروجه عن اوامر الدين في قوله

---

[1] هو اسم قصر بني في عهد السلطان عبد الحميد المخلوع كان منزلاً لملوك فرنسا في باريس واحرق في مايو عام ١٨٧١

بحركة الارض ثم حكموا عليه بالاعدام فالتفت الى الجمهور وهو جذل فرح وقال : « هي تدور وفوق ذلك هي كروية »

وكذلك « دانتي » حكيم ايطاليا وشاعرها امر الكردينال « بورجيتو » عام ١٣٢٩ باحراق بعض مؤلفاته في بولونيا جهراً وطلب اخراج جثته من القبر واحراق عظامها انتقاماً منه على الحاده ثم لم تمض على هذه الاحكام عشر سنين حتى شعر الشعب الايطالي بمنزلة هذا الرجل ففي سنة ١٣٥٠ قررت جمهورية فلورنسا ان تدفع مبلغاً من النقود الى ابنة له راهبة تدعى « بتريس » وفي عام ١٣٩٦ قررت ان يبنى له ضريح ويقام له تذكار في فلورنسا على انهم ما زالوا يحاولون ذلك الى اوائل هذا القرن فابتنوا له ضريحاً وقد احتفلوا بافتتاحه في ١٤ تموز عام ١٨٦٥ وهو تذكار مضي ستمائة سنة من يوم ولادته

ومثله « فولتير » حكيم الادباء في فرنسا نظم قصيدة هجا بها لويس الرابع عشر ملك فرنسا فحكم عليه بالسجن فسجن في الباستيل سنة نظم اثناءها قصيدة سماها التعاهد (ليج) ورواية دعاها (اوديبوس) قالوا انها احسن ما كتبه من حيث شرح العواطف الحقيقية وذلك عام ١٧١٨ ثم اطلق سراحه بدعوى انه مريض يحتاج الى تبديل الهواء في (بومبيير) القار وقد عول على ان لا يعود الى فرنسا ولكن لم تلن عزمه فعاد الى مثل ذلك فاعيد الى السجن مهاناً بالضرب واللكم عام ١٧٢٦ فلبث هناك ستة اشهر ثم اطلق سراحه والتجأ الى انكلترا لعله يتخلص من دسائس الفرنسويين

ولقد كتب مقالات فلسفية قيل انه تعرض فيها للدين والسياسة فاحرقت بامر مجلس الامة (البرلمان) واضطر الى مغادرة باريس خوفاً على حياته وقد ذهب بعضهم الى انه الحد لان الكهنة لم تأذن بدفنه في المدافن المألوفة وان احد ابناء اخيه كان رئيس دير فاخذ الجثة سراً الى ديره ودفنها في الكنيسة وفي سنة ١٧٩١ نقلت الجثة الى البانتيون مدفن الملوك والعظماء والكبراء

وكذلك « روسو » فانه نال من نبال الطعن والاحتقار ما لا يكاد يخطر على بال وما ذنب هذا الرجل الكبير — كما قال احد حكماء فرنسا — سوى انه خالف سنة اهل النظر في عصره وهي اعتمادهم في اصلاح المجتمع الانساني على الرجال ومخاطبتهم اياهم فيه بان وجه خطابه الى الوالدات والاطفال وهو امر هداه اليه ما فطر عليه من جودة الطبع وذكاء القريحة » ثم قال : « وان اردت ان ابين لك كيف خدم روسو الاطفال خاصة بما نشره في كتبه من الافكار لقلت ان ذلك انما كان بما القته تلك الكتب

في نفوس الفرنسيس من بذور الثورة وهيأتها به لها »

ومثله « لوتيروس » المصلح الديني الالماني فانه قام بالدعوة الى ما صح عن المسيح طبق ما ورد في الانجيل ضاربًا بتلك الاوهام التي تعلقوا فعلقوا بها عرض الحائط . واول ما نقضه هو مسألة الغفران ولم ير داعيًا للابوة فالغى الرتب الروحانية وشركات الدنيا والقاعدة التي تحول الرهبان عدم الزواج ظهريًا .

وحملته طبيعة الحال على ان يدعي ويثبت ان مذهب كنائس الكاثوليك جميعًا تناقض احكام الدين المسيحي على خط مستقيم وقد دعا الامبراطور « شارلكان » المجلس العام في المانيا الى الانعقاد فالتأم وطلب المجلس باكثرية الاصوات احراق « لوثيروس » وقد كاد يتم ذلك ولولا انه اقام سنة كاملة في وارتبورج مختفيًا عن اعين الرقباء واتم خلال هذه المدة ترجمة الانجيل الذي كان شرع بترجمته بادئ بدء واحدث انقلابًا كبيرًا في الادبيات الانكليزية والافكار

وبلغ بالقسيسين التعصب في اسبانيا على عهد سكيمون الثالث مبلغًا هذا حده ولم يكن منهم الا ان ابعدوا عامة من كانت تهزهم اريحية الوطنية اياه كان القسم الاعظم من واردات الحكومة مخصصًا لصندوق الكنيسة . وان شعور التعصب قد بلغ في اوربا اشده حتى كان الرجل اذا انتسب الى الموسويين ومن ثم ترى هؤلاء المساكين يستهدفون لضروب الايذاء والخفاء ما الله به عليم [1]

وبعد فان سلطة العلم لا تقاوم ومن قاومها كان حقيقًا بكل اذى يلحقه ان لم يكن عاجلاً فآجلاً . وصوت العلم النافع — كما قال رنان — كثيرًا ما يتضاءل امام جمجمة المهاجمين وغمغمة الدجالين والمشعوذين حتى سكن ضجيج تلك الظواهر يعلو ذلك الصوت بحيث لا يعود احد يسمع غيره » قال : « ومن اجل هذا نرى الطبائع العلمية على كثرة شكوى اهل الافكار المخطئة منها فائزة بفضل القدرة لانها حارسة حسن الترتيب الحقيقي وهي قليلة ولكنها مفلحة وليس لغير العقل سلطة تبقى »

وان رجال الاصلاح كما اغرقوا في الدعوة اليه صموا آذانهم عن جلبة الوشاة والشانئين ولم يحفلوا بما يوقع سلطاتهم من الكوارث فانهم يعدون ما يصيبهم من اهانة واحتقار شرفًا لهم وفخرًا كما قال ذلك الكاتب الفرنسوي : « كل قطعة من الوحل تلقى في جبهة

---

[1] الحرية الدينية — احمد شعيب

صاحب صناعة فهي أكليل من الغار » وقد سيق من سيق من هؤلاء المصلحين الى القتل وعلى شفاههم تلوح ابتسامة السرور ولسان حالهم يقول كما قال لازوروس : « نحن نموت الآن لان الشعب نائم وتموتون انتم غداً متى استيقظ الشعب »

***

هذه آثار الادوار السوداء ونتائجها ولقد كان للامم الشرقية من آثار مثل هذه الادوار حظ وافر ولو لم يزل فيهم من القوة بقية ومن الذكاء اثماد لأودت بحياتهم الادبية منها والمادية . ومما يقوي آمال رجال الاصلاح ويشد عزائمهم ما رأوه من نهضة المشارقة في هذه القرون الاخيرة فقد تناولت الحركة الاصلاحية الشمس المشرقة (اليابان) ففارس فالامة العثمانية مما يدل على ان الاستعداد كامن في نفوس البشر التربية تظهره والاهمال يخفيه

ولا بدع اذا قامت تلكم الاقوام بنهضة حديثة اهتزت لها الارض من اقصاها الى اقصاها وهم الذين كانت لهم فيما مضى حضارة ضخمة فخمة قضت عليها النواميس الطبيعية بالاندثار والعفاء وقيضت من رجال الغرب من عني بامرها فبرزوا بها وبرزوا . فما على الامم الشرقية اليوم الا ان تطرس على آثار الغربيين في العلم والاجتماع وتأخذ بالامور المعقولة من حضارتهم ومدنيتهم ليكتب لها عمر مديد وتاريخ مجيد ! . .

دمشق : صلاح الدين

القاسمي